الكريم وكلام العرب . يقول الدكتور شوقي ضيف : « إن الجاحظ قد ألَّم في كتاباته بالصور البيانية المختلفة ، وبكثير من فنون البديع غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات : فقد كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية ، وقلَّما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها »[1] .

على أننا لا نرى أن إيراد النماذج شغل الجاحظ عن التعريف والتحديد ، وإنما نرى أن ذلك أسلوب اختاره لنفسه ، ولو اختار أسلوب المؤلفين الذين عرفناهم يُعنَوْن بالتعريفات والتحديدات لأتى به وطبقّه . وإن أسلوبه عندنا لأجدى ، ثم هو أُسلوب لا يقوى عليه إلا من كان بليغاً بطبعه . أما التقسيم والتبويب ووضع الحدّ والتعريف ، فأمر يقوى عليه كل من أتقن العلم إتقاناً نظرياً دون أن تكون له خبرة بالتطبيق وضربِ المثل ، وأين هذا من صنيع الجاحظ . بل شتان ما بين بليغٍ بالطبع ، يشرح لك أسرار البلاغة ويقفك على مواطن الجمال ، وبين عالمٍ بالكسب ، عرف البلاغة وراح يؤلف فيها ويجمع القواعد والأحكام ، ولذلك صح للدكتور ضيف أن يقول « وقد ظلَّت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة معيناً لا ينفد لمدّ الأجيال

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٥٦